المحاضرة 1

الرواية التاريخية والتاريخ

أ.د. شريف بموسى عبد القادر

يمكننا اعتبار الآداب مرآة للشعوب أي انعكاس لواقعها وتاريخها، وما يدلّ على ذلك أنّنا نجد إلياذة هوميروس مثلا، لم تنجح كلّ هذا النجاح إلاّ لأنّها أرّخت لحرب طروادة وحصارها المشهور؛ أيّ أنّها دوّنت بطريقة أدبية شعرية تاريخ حصار مدينة طروادة وحروبها. من هذا المنطلق نرى بأنّ الرواية باعتبارها فنّا أدبيا، تدخل ضمن هذا المنظور، أي الرواية انعكاس للتاريخ.

فالرواية تعكس واقع الشعوب وما تعيشه في فترات معينة من الزمن، هذه الفترات التي تُعتبر تاريخا لها. فإذا تناولت رواية أدبية ما فئة من المجتمع أو طبقة منه فهي بالضرورة تتناول جانبا من تاريخ هذه الطبقة أو الفئة المجتمعية.

بما أن الرواية تتناول ظواهر اجتماعية، وكل ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة تاريخية كما يقول باختين، نستطيع القول بإمكانية اعتبار الرواية مصدرا غير تقليدي للتاريخ؛ لأنّها الأقدر على التغلغل في طيات المجتمع وخبايا النفوس والأقدر أيضاً على إنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثقافي والسياسي والاجتماعيّ العام.

ومن هنا نجد أنّ هناك ارتباطا وثيقا بين الرواية والتاريخ، ولكن يجب التفريق بين الرواية بصفة عامة والرواية التاريخية.

لكنّ أوّل سؤال يتبادر إلى ذهننا هو : ما علاقة الرواية بالتاريخ ؟

إذا ما اعتبرنا حضور التاريخ من لوازم رواية ما، فإنّ اشتغال رواية ما على التاريخ يقتضي الإلمام بالأحداث التاريخية من طرف الروائي وخلق نوعا من التوازن والتناغم بين ما هو جمالي أدبي وما هو تاريخي موضوعي وهذا ما يُفترض وجوده في الرواية التاريخية. ستكون من وظائف هذا النوع من الروايات، الكتابة داخل المساحات المغيّبة في التاريخ الرسمي، هو نوع من التأريخ لما لم يُؤرّخ.

لكنّ هذه العلاقة والترابط بين الرواية والتاريخ لا يفرض بالضرورة رؤية موحّدة للروائي والمؤرّخ، لأنّ المؤرّخ لا يستطيع في سرده للأحداث التاريخية أن يكون روائيا لتقيّده بالحقائق التاريخية دون تدخّل منه سواء بالزيادة أو الحذف؛ بينما لا يمكن للروائي أن يكون مؤرّخا عندما يتّخذ التخييل وسيلة لسرده للأحداث التاريخية، فيستطيع أن يقدّم ويؤخّر ويزيد ويحذف ونجد أحسن مثال على ذلك روايات جرجي زيدان.

من هنا يمكننا تعريف الرواية التاريخية بحسب **جورج لوكاتش** بأنّها " عمل فنّي يتّخذ من التاريخ مادة له، ولكنّها لا تنقل التاريخ بحرفيته، بقدر ما تصوّر رؤية الفنّان له ". ويضيف الناقد المصري محمود أمين العالم بأنّها: «تاريخ متخيّل داخل التاريخ الموضوعي»، بمعنى يمكن للروائي تخيّل بعض الأحداث والشخصيات وإضافتها ضمن الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية الحقيقية، أي يبتدع شخصيات وأحداث غير موجودة ضمن التاريخ الحقيقي الذي تتناوله الرواية.

ويمكننا أن نأخذ مثالا واحدا لندلّل على ما ذُكر سابقا، فرواية " **آلْمُوتْ** " للروائي الروسي **فلايدمير بارتول** التي كتبها سنة 1938م هي رواية تاريخية بامتياز حيث

تناول شخصية تاريخية دموية معروفة في التاريخ الإسلامي وهي شخصية " **حسن الصباح** " (شيخ الجبل) وقلعته المنيعة " **آلْمُوتْ** " بالإضافة إلى شخصيات أدبية وسياسية تاريخية معروفة كـ " **نظام الملك** " رئيس وزراء الدولة السلجوقية سنة 1092م والشاعر والفلكي " عمر الخيام". لكنّ الكاتب أو الناشر لهذه الرواية في ترجمتها العربية يوضّح في الغلاف الأخير للرواية طبيعة هذه الرواية وتناولها لأحداث تاريخية حتّى لا يقع التباس في ذهن القارئ فيقول :

يُخطئ من يبحث في هذ العمل عن حقيقة" تاريخية ". ويُخطئ من يقرأه كبحث أو دراسة تاريخية أو عقائدية. فهذا العمل هو أوّلا " رواية " أي أنّه يحكي، كأيّة رواية أخرى، قصّة شخصيات وأمكنة وأزمان من حبر وورق تنحصر حقيقتها ضمن إطار النص المكتوب. وهذا النص هو ثانيا " رواية تاريخية " أي أنّ الروائي يتّكئ على التاريخ لصناعة الحكاية. وهذا لا يعني مطلقا أنّه يعيد سرد التاريخ كواقع وإنّما يُنشئ واقعا سرديا جديدا هو الرواية التي تُقرأ.

قلعة آلْمُوتْ وشخصيات **الحسن بن الصباح** و**عمر الخيام** و**نظام الملك** وعملية تقويض سلطة السلاجقة الأتراك في فارس عام 1092م وغيرها، كلّها عناصر وُجدت واقعيا في التاريخ لكنّها ليست في هذه الرواية أكثر من عناصر سردية في نصّ لا يكتسب واقعيته سوى من كونه الآن بين أيدينا.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأنّ أيّ روائي حينما يتّخذ من التاريخ مادة لروايته يبني عليها الحبكة والعقدة الروائية سواء بناء على معطيات حوادث تاريخية مرجعية وقعت أو معطيات شخصية تاريخية معروفة عند أمة من الأمم، فهذا الروائي

لا يهدف إلى تسجيل الحوادث التاريخية كما وقعت أو تمثيل الشخصيات التاريخية تمثيلا صادقا وحقيقيا، بقدر ما يهدف الروائي إلى بناء نصّ أدبيّ يتخيّل فيه أحداثا غير التي وقعت وشخصيات أخرى تكون جانبية للشخصية التاريخية المعروفة.

ولعلّ هذا ما حاوله روائيون عرب كثيرون بدءا من جرجي زيدان في رواياته التاريخية كـ " صقر قريش " والعباسة أخت الرشيد " و " المملوك الهارب " وغيرها؛ مرورا بالروائي عبد الرحمن منيف في خماسيته الروائية " مدن الملح " والمصرية رضوى عاشور في ثلاثية " غرناطة " وعبد الجبار عدوان في روايته التاريخية الجبّارة " راوي قرطبة " وربيع جابر في روايته التاريخية الهامة " دروز بلغراد " والتي حصل بها على جائزة العالمية للرواية العربية سنة 2012، وغيرهم من الروائيين العرب. كما لا ننسى الروائيين الجزائريين الذين استعادوا فترات مختلفة من تاريخ الجزائر مثل محمد مفلاح في روايته " شعلة المايدة " الصادرة سنة 2010 حيث تناول فترة مقاومة الجزائريين لاحتلال الإسبان والشهور القليلة لتحرير مدينة وهران سنة 1792، تناولت الروائية الجزائرية هاجر قويدري في روايتها " الرايس" الصادرة سنة 2015 البحرية الجزائرية بقيادة الرايس حميدو في الفترة الممتدة بين سنة 1790 و1810 بالجزائر، أمّ الروائي واسيني الأعرج فقد اختار العودة إلى تاريخ النضال الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي حيث تناولت روايته "كتاب الأمير؛ مسالك أبواب الحديد " سيرة حياة الأمير عبد القادر الجزائري وظروف مقاومته ومعاركه وسجنه في منفاه بفرنسا.

فكذلك الرواية الجزائرية لم تكن بمنأى عن الرواية العربية في تناولها التاريخ الرسمي للجزائر بنوع من التخييل.

لكن يحقّ لنا أن نتساءل : هل الرواية التاريخية لها شكل واحد أم عدّة أشكال؟. وبعبارة أدق هل هناك أنماط للرواية التاريخية أم نمط واحد؟

فالرواية التاريخية تنقسم إلى ثلاثة أنماط :

1 – النمط الأول: يتناول شخصية تاريخية معروفة في ثقافة بلد ما مثل رواية الفرنسي جيلبرت سينويه " **ابن سينا؛ أو الطريق إلى أصفهان** " والتّي يتناول فيها بعضًا من حياة الطبيب والفيلسوف المسلم **ابن سينا** في العصر الثاني من الدولة العباسية. ورواية " **سمرقند** " للكاتب اللبناني **أمين معلوف** والتي يتناول فيها حياة الفلكي والشاعر **عمر الخيام** وشخصيات **حسن الصباح** و**نظام الملك**.

2 – النمط الثاني: يتناول الأحداث التاريخية زمانيا ومكانيا في فترة معيّنة من فترات تاريخ دولة ما أو أمة ما ونجد روايات عالمية تمثّل هذا النمط خير تمثيل مثل رواية " **أخوية اليقظانيين** " **لجاك أتالي** والذي يتناول فيها أحداثا تاريخية حدثت في الأندلس والمغرب العربي مثل توسّع الدولة الموحديّة وبسط نفوذها على كامل إمارات الأندلس وإنهاء ما يسمّى بـ **عصر الملوك الطوائف** والتقاء العالمين المسلمين المشهورين **ابن رشد** **بابن الطفيل** وما صاحبهما من أحداث تاريخية بارزة في العصر الموحدي بالمغرب العربي والأندلس.

3 – النمط الثالث: يتناول أحداثا غير تاريخية ضمن إطار تاريخي؛ أي يوظف التاريخ بأحداثه وشخصياته دون أن تنتمي هذا النمط إلى ما يسمّى الرواية التاريخية. وتدخل ضمن هذا النمط مجموعة من الروايات منها رواية " **الحواميم** " للروائي المغربي " عبد الإله بن عرفة " ورواية " **اللوح الأزرق** " للروائي الفرنسي **جيلبرت سينويه** ورواية

"حكومة الظل" للروائي السعودي منذر القباني وغيرها من الروايات التي انتهجت هذا النمط.

فمسرح أحداث رواية " **اللوح الأزرق**" هو إسبانيا وزمانها زمن سقوطها وهزيمة المسلمين وخروجهم منها. يحاول الروائي ومن خلال قراءة في تاريخ هذه الفترة استرجاعها بحسّ ومخيلة روائيين. يستعرض الكاتب الأحداث من محاكم التفتيش إلى المجازر والمحارق التي أبيد فيها العرب والمسلمون وحتى اليهود، إلى المكائد التي استطاع من خلالها كلٌّ من ملك وملكة إسبانيا إشعال الحرب والمضي فيها إلى حين بلوغ لحظة الانتصار التي وصلوا إليها بالخديعة.

تبدأ الرواية باحتفالية الموت: نحن الآن في طليطلة (إسبانيا) من عام 1487، وقد أضرمت محاكم التفتيش النار في المحرقة التي أعدتها لإعدام «الهراطقة» من اليهود .

تتجلى فكرة الرواية بوضوح بعد موت الحبر اليهودي ابن برول الذي يترك رسالة وزعها قبل موته بأيام، على ثلاثة أشخاص كانت تربطه بهم علاقة خاصة. الأشخاص الثلاثة لا يعرف بعضهم بعضاً، إلا أنّ رسائل صديقهم الذي قضى حرقاً، صارت الرابط بينهم.

الأول هو صموئيل عزرا، حبر يهودي في السبعين من عمره. الشخصية الثانية، الشيخ المسلم شاهر بن السرّاج الغرناطي. يحل اللقاء بين المسلم واليهودي ويضعنا المؤلف أمام شخصيتين لا يستهان بعلمهما؛ وتستمر أحداث الرواية حتى ظهور الشخص الثالث. ففي الوقت الذي تكون فيه القوة العسكرية المؤتمرة بأمر الكنيسة،

تمثل الخطر الأكبر الذي يهدد المسلمين واليهود في الأندلس حيث الحروب ومحارق محاكم التفتيش، نجد أن صاحب الرسالة وضع راهباً مسيحياً أمام الحبر والشيخ، ليكمل فيه المثلث الذي أوكلت إليه مهمة البحث عن «اللوح الأزرق» أو «كتاب السفير». مع الراهب رافائيل فارغاس يكتمل المثلّث، وتكتمل فكرة الرواية الداعية إلى حوار الأديان. فكرة سامية تفصح لنا عن أن لا فرق بين الأديان، فكلها تتوحد بفكرة قدسية الله واحترام البشر. والفرقة التي نعيشها الآن ما هي إلاّ هيمنة أفكار خارجة عن روح الرسائل السماوية. إنّها رواية تنقلنا في رحلة عبر مدن أندلسية كثيرة نبحث مع الشخصيات الأربع الرئيسة عن القرائن والدلائل ونفك الطلاسم والألغاز للوصول إلى اللوح الأزرق.

ويجيد الناقد والباحث الدكتور محمد الأمين بحري شرح أنماط الرواية التاريخية وتبيان تميّز كلّ نمط عن غيره بل ويعطينا نماذج ثرية لروايات جزائرية انتهجت أحد هذه الأنماط الثلاثة للرواية التاريخية حيث يقول في هذا الجانب:

" تتميز خصوصية النوع الأول (رواية الشخصية التاريخية) بضيق هامش التخييل واتساع مجال التوثيق ومطابقات الوقائع التاريخية، نظراً لكون الشخصية التاريخية هنا جاهزة ومعروفة لدى المثقفين ورائجة لدى الرأي العام، وكلها عناصر رقابية على ما سيضيفه الروائي لهذه الشخصية الجاهزة. ولن يضيف هنا إلا التخييل الحذر. لذلك يقل هذا النمط الروائي في العالم العربي وفي الجزائر خاصة حيث لا نجد سوى رواية «الأمير» لواسيني الأعرج و«الرايس» لهاجر قويدري. ويعلم المتابعون، كم الانتقادات التي تلقاها هذان النصان، بحكم وقوعهما في مضيق التخييل الخاص بهذا النوع. ويبدو

تورط النصين واضحاً في مأزق السؤال الذي تطرحه هذه الرواية: ماذا سأضيف من تخييلك لشخصية جاهزة ومؤثثة مسبقًا لدى القراء؟

أما خصوصية النمط الثاني (رواية الحدث التاريخي) فتمنح هامشاً أوسع للتخييل على حساب التوثيق الوقائعي، إذ يمكن للروائي زرع ما لا نهاية من القصص الضمنية، العاطفية والاجتماعية المتخيلة في ثنايا الأحداث الموصوفة، دون أن يخترق خصوصيتها ولا إحداثياتها التاريخية المعروفة. وهذا ما تفنن فيه روائيون كثر استهواهم هذا النمط الروائي لسعة مجال التخييل فيه، ومن بين أبرز الأقلام الروائية الجزائرية في هذا النمط نجد الطاهر وطار في «اللاز»، و«الشمعة والدهاليز»، ومحمد مفلاح في «خيرة والجبال»، و«الانفجار»، و«هموم الزمن الفلاقي»، و«شعلة المايدة»، ولحبيب السايح في «كولونيل الزبربر»، و«إبراهيم وطار» في «مقابر الياسمين».. وغيرهم الكثير.

وفي النمط الثالث (الرواية التي توظف التاريخ دون أن تكون تاريخية)، ينفتح القوس بشكل قد يشمل كلّ أنواع الرواية دون استثناء أو حصر، حيث ترحب كلّ أنماط الروائية بأي خطاب تاريخي يثري متونها. نتساءل طبعا: هل وفقت رواياتنا مع التاريخ؟."

وفي هذا النمط نجد روايات أكثر بكثير ممّا هي موجودة في النمطين السابقين.

مراجع المحاضرة :

- نضال الشمالي: الرواية والتاريخ؛ بحث في مستويات الخطاب – عالم الكتب الحديث – بيروت – 2006.

- جورج لوكاتش : الرواية التاريخية – ترجمة : جواد صالح الكاظم – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – 1986.

- حلمي محمد القاعود : الرواية التاريخية في أدبنا الحديث دراسة تطبيقية – دار العلم والإيمان – بيروت.